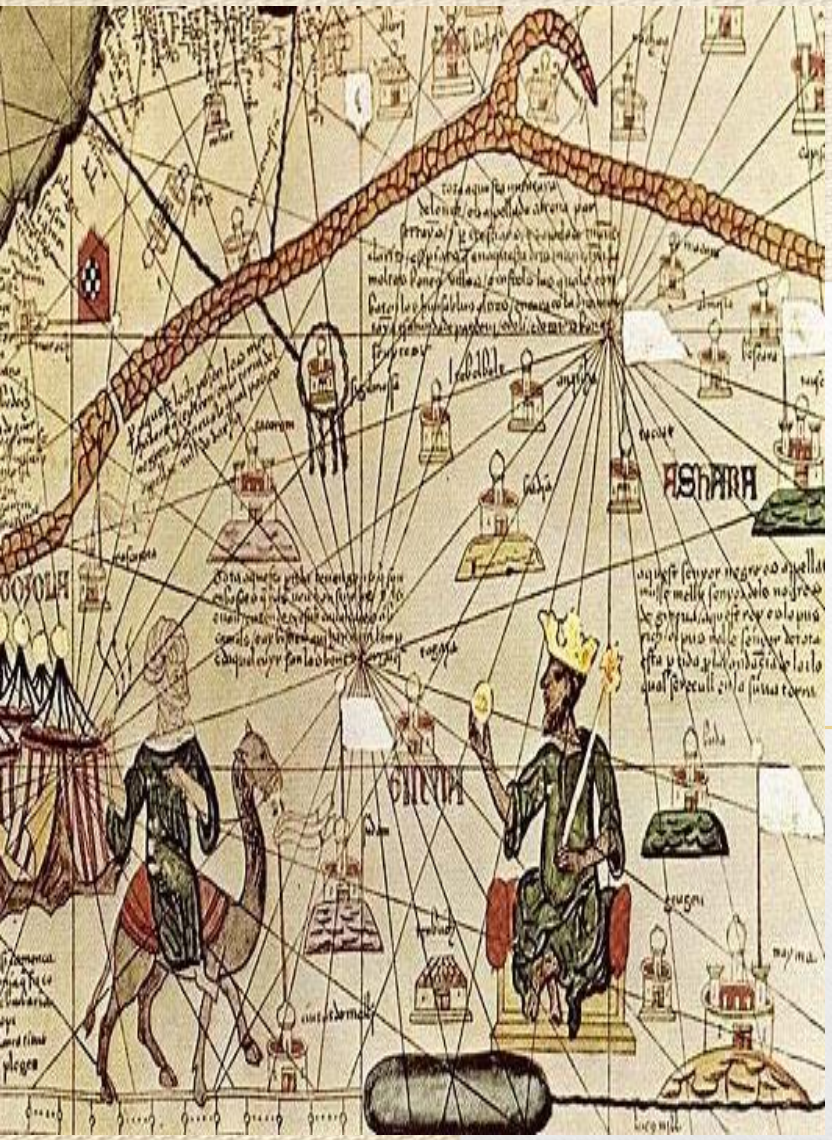

جامعة محمد بوضياف المسيلة
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

علقات الغرب الإسلامي مع العالم المسيحي (2 ماستر)

العلاقات التجارية بين مملكة تلمسان ومدن جنوب أوروبا الغربية

من منتصف القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن السادس عشر

الصراع المستمر من اجل السيطرة على طرق التجارة.

الأستاذ الدكتور كمال فيلالي

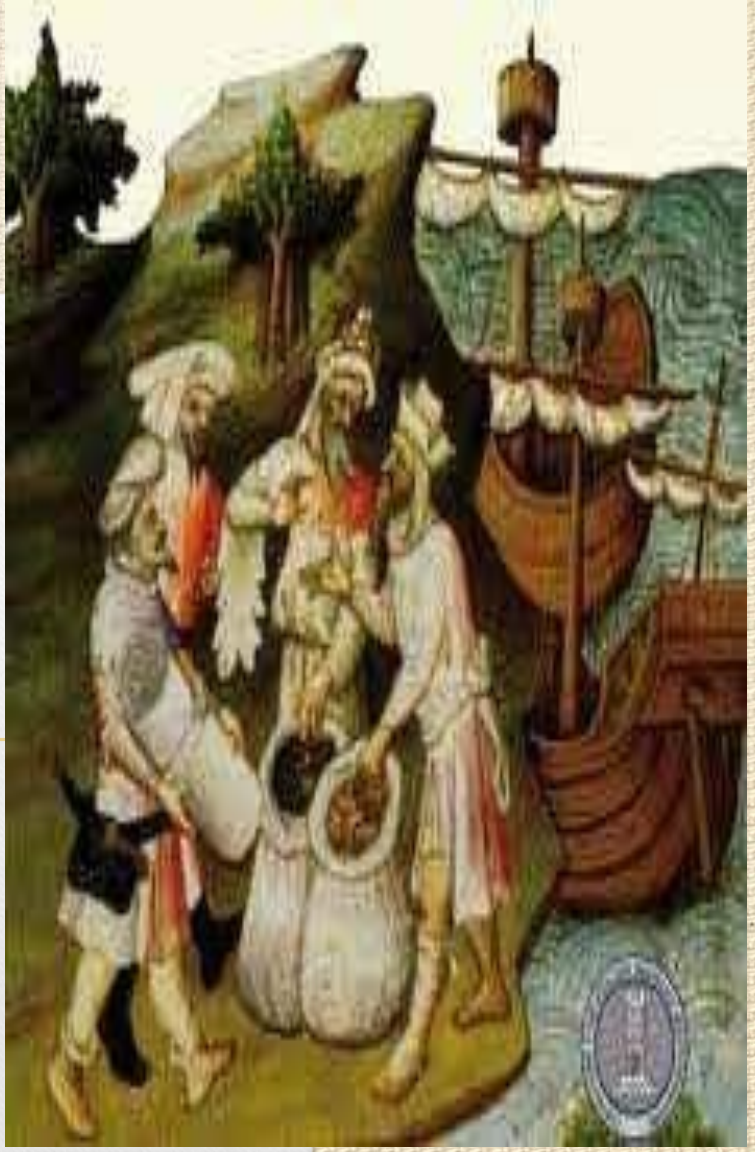

تحليل المحتوى :

من الصعب دراسة العلاقات التجارية بين مدن جنوب غرب أوروبا والمدن الساحلية لبلاد المغرب الاسلامي دراسة رقمية وافية لشحة الأرشيف الاقتصادي في القرون الوسطى ، خاصة من الجانب العربي. حتى أن المصادر التاريخية العربية حول هذا الموضوع ضئيلة، بل تكاد تكون غير موجودة، ناهيك عن الارشيف الرسمي الخاص والعام الذي يكاد ينعدم لان اغلب الشريكات التجارية كانت من نصيب اسر بورجوازية أوروبية ويهودية.

حتى الدراسات الحديثة المنجزة تفتقر الى احصائيات و معطيات رقمية ، فهي في غالبيتها تقوم على معايير تقريبية ضعيفة، ينعدم في طرحها المنهج الكمي و حتى الجانب التأريخي الكرو ولوجي ، فهي تستعمل تواريخ تقريبية، ناهيك الثغرات الكبيرة فيما يتعلق بالميزان التيجاري و بالمواد التجارية المتبادلة بين ضفتي البحر المتوسط.

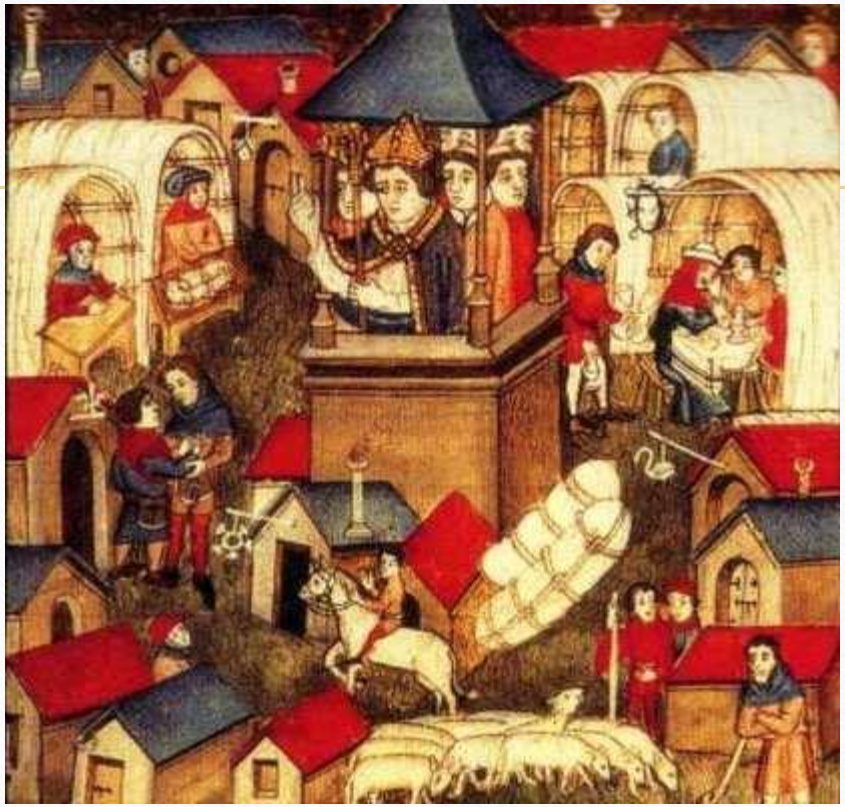

البحر الأبيض المتوسط مجال حيوي للصراع و التبدل الحضري التجاري :

حيث أصبح التجار من مختلف الأديان والجنسيات يفيدون من كل حدب و صوب، من مختلف أنحاء أوروبا في موانئ المغرب .فتزايد عدد التجار الإيطاليين والبروفنسال)الفرنسيين (والكتالونيين)الاسبان (بشكل معتبر، خاصة في موانئ وهران وحنين بالنسبة للمغرب الاوسط .هذان الميناءان لعبا دورا اساسيا في تواصل المغرب الاوسط مع العالم الخارجي و اصبحا ضروريان لبني عبد الوادي ليس فقط لاستيراد وتصدير البضائع ولكن ايضا للأسطول الحربي و لتامين سواحلها من الخطر الخارجي .

العلاقات التجارية بين الحرب و الهدنة:

أصبحت العلاقات التجارية بين المدن الساحلية المغاربية ومدن جنوب أوروبا الغربية ثابتة ، خاصة في اواخر الدولة الموحدية في عهد ادريس المأمون ، (1229م-1232م) الذي عرف عهده الكثير من الإصلاحات السياسية و الاجتماعية . حيث سمح بممارسة الأديان علانية كاليهودية التي كانت منتشرة جنوب المغرب في مراكش، وسمح للكنيسة المسيحية حرية العمل في نطاق سياسته المنفتحة اسبانيا الكاثوليكية. بعد سقوط الدولة الموحدية و حلول الحفصيين في إفريقيا و بني عبد الواد في في المغرب بقيت المبادلات التجارية Merinidesالجزائر و نشطة بين الشمال و الجنوب وكان هذا على الرغم من الاضرابات التي اتسمت بها العلاقات الدبلوماسية بين ضفتي البحر الابيض المتوسط والتي كانت متوترة للغاية بسبب الازمات المزمنة و زيادة نشاط بالقرصنة بسبب انتقال الحروب الصليبية فكان لهذا الصراع الحضاري العقائدي .الى الغرب الاسلامي الطويل المدى اثرا كبيرا على ارتباك العلاقات التجارية دون قطعها على الإطلاق.

كانت معاهدات السلم تهدن الصراع وتهيئ مناخ من مناسب لفتح باب المعاملات و التنمية الاقتصادية .
منذ نهاية القرن الثالث عشر، استقر العديد من التجار الإيطاليين والفرنسيين والأراغونيين والكتالونيين في مدن وهران وتلمسان وحنين ، حيث اصبح لهم وسطاء ، و اصبح معظم التجار المسيحيين كانوا ينشطون بشكل منتظم في المدن الساحلية بين شرشال و تنس وفي العاصمة الزيانية تلمسان من خلال ميناء هنين .هكذا انتشرت الفنادق الاوروبية في المدن الساحلية و ازدهرت التجارة بين مملكة تلمسان و الجمهوريات الإيطالية ، فأصبحت نشطة للغاية ؛ لدرجة أن الفرنسين خاصة البروفنسال)من اهل مارسيليا(، الذين كانوا حتى نهاية القرن الثالث عشر يتخذون الإيطاليين كوسطاء .قبل ان تظهر منافسة حادة في القرن الرابع عشر، بين الايطاليون و الكتالونيون والأراغون و الذين اصبحوا يسيطرون على تجارة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، أي عصر الموحدين، أصبحت الأنشطة التجارية أكثر دينامية. فازدهرت التجارة بفضل تطور البنية التحتية في المدن الساحلية للبحر الأبيض المتوسط و زادت معاهدات السلم و المعاهدات التجارية في عهد ادريس المأمون ، (1229م-1232م) . فأصبحت هناك مرافئ بإمكانها استقبال المراكب الكبيرة و مستودعات للشحن و التفريغ .في وهران وحنين كانت هناك مستودعات لتخزين البضائع .و زاد عدد المراكب المسيحية و اصبح الأمر متروكًا للإيطاليين لتزويد التجار المسلمين بالسلع الاوروبية .كما تعهدوا بنقل المسافرين على طريق موانيء مصر وفي الاتجاه العكسي . لكن في بداية القرن الثالث عشر، أدى التنافس التجاري العنيف بين جنوة وبيزا والبندقية إلى تقليص التجارة مع المسلمين ، ناهيك عن مخلفات الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع على تونس .لم تستأنف التجارة حقًا إلا بتوقيع معاهدة كريمونا لإقامة السلام بين جمهورية البندقية و ذوقية ميلانو، في 22 أغسطس 1270و التي انتهت في 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1441، منهية بذلك الصراع الطويل المدى بين الإمارات الإيطالية الذي كان له اثر كبير على التجارة في البحر الأبيض المتوسط .

ظهور العثمانيين على مسر الاحداث و زيادة التنافس على طرق التجارة :

تزامن الصراع بين دول و امارات اوروبا على الطرق التجارية بين الشرق و الغرب مع ظهور العثمانيين القرن الثالث عشر. و بحكم موقعهم الوسطي بين اوروبا و اسيا ، اصبح اسطول الأتراك ينافس بجدية المراكب الايطالية .هكذا اصبح التجار الاوروبيون يميلون اكثر الى شرق البحر الأبيض المتوسط .فركزوا جهودهم على الحوض الغربي لجني العديد من الاسواق بين شمال و غرب افريقيا حيث احتل هذا الحوض مكانة كبيرة في التجارة بين الشمال و الجنوب .

سيطرة الامارات الإيطالية على طرق الملح و القمح و الذهب الحوض الغربي :

كان الحوض الغربي مناسبا يخدم المصالح الإيطالية التي اصبحت تحتل دور الوسيط بين تجارة الشمال والجنوب. في الواقع الدولة العثمانية، حتى لو كانت لها صناعة بحرية متطورة في السفن الحربية الا انه لم يكن لديها موانئ لصناعة بحرية حقيقية قادرة على التنافس مع دول أوروبا، مما سمح للإيطاليين بأن يكون لديهم احتكار فعلي لنقل البضائع والأشخاص وحتى للحجاج .فكان النشاط البحري للجمهوريات الايطالية بين ساحل كل شمال افريقيا بما في ذلك مصر وبلاد النصارى تسيطر من خلاله على طرق تجارة الملح والقمح والحرير .لكن طريق الذهب في الغرب كان أكثر جذب للإيطاليين الذي كان يجلب من السودان من قبل وسطاء من تلمسان ومدن اخرى، كان من خلالها يتم تزويد أوروبا.

اشتداد التنافس بين الجهوريات الإيطالية على الطرق التجارية :

مع حلول القرن الخامس عشر، أصبح الاوروبيون خاصة الإيطاليون يتنافسون في الاستيلاء على طريق الذهب الذي كان يجلب من غرب افريقيا عن طريق تلمسان والمغرب الاقصى .لكن على الرغم من جهود الايطاليون الهائلة للسيطرة على الطرق البحرية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، لم يتمكنوا من ذلك بفعل المنافسة الشديدة للأرغون في مياههم الاقليمية .و كان الإيطاليون مجبرون على المرور عبر جزيرة قادس Cadixللمتاجرة بالذهب مع الاسبان، ولم تكن لهم علاقة مباشر مع الموانئ الابيرية.

كانت الجمهوريات الايطالية مستقلة عن بعضها البعض وفي تنافس مستمر فيما بينها و مع فرنسا و اسبانيا على النفود في بحر الأدرياتيك وفي حوضي البحر المتوسط .فكان لكل جمهورية من الجمهوريات او الذوقيات مصالحها الخاصة وتتصرف وفقًا لهذه المصالح .

كان موقع هذه الجمهور يات فلورنسا و البندقية و بيزا تسبح كلية في البحر فموقعها الجغرافي المبجل أعطاها مكانة للنشاط البحري .اما جنوة فهي تولج في البحر الابيض في شكل خليج كبير جعل منها احد اكبر الموانئ ، يتوسط في البحر الابيض بمحادة بفرنسا

. كان عامل الحروب الصليبية عاملا مناسبا ساعد الدول الاوروبية خاصة منها الايطالية على تطوير صناعتها البحرية واعطاها انطلاقة حقيقية للسيطرة على طرق البحر الأبيض

.حيث ساهم أسطول البندقية و الاسطلين الجنوى و التسكاني في نقل القوات الصليبية وإمداد جبهات الصراع في كل الحروب بالدخيرة المدافع و الاحصنة .كما اصبحت كورسكا و جنوة و الندقية و رودس احد محطات القرصنة مقابل اربطة افريقيا و المغرب..

القرصنة Course و لصوصية البحر Piraterie احد عوائق الرواج التجاري بين الشمال و الجنوب :

القلة النادرة من الباحثين يفرقون بين القرصنة كحرب عقائدية دينية و لصوصية البحر كسطو و قطع كريق في البحر .
كانت الغارات القرصنية والهجمات العسكرية تسيطر على جزء كبير من تاريخ العلاقات بين الامارات المسيحية والمغرب الاقصى و الادنى في التاريخ الوسيط .كانت هجمات التسكانين و الجنوبيون و سردينيا على سواحل شمال إفريقيا متكررة ومفاجئة. الى جانب القرصنة التي كانت تُشهر بين المسلمين و المسيحيين انتشرت لصوصية البحر La piraterie التي خلافا للقرصنة)حرب دينية (كانت لها خلفيات سطو و غنيمة في البحر و التي يسمها لوبيز خطاءا القرصنة . La courseأذ يذكر لوبيز Lopez (1) إلى ان الصراع الذي كان بين بيزا و جنوة كان "صراعًا بين قراصنة في البداية "، وكان وراءه أرستقراطيين وتجارًا ، وأعضاء في "ائتلاف قرصني "قوي أو ملاك سفن مستقلين ، يستعملون مغامرين ومرتزقة .كان غزو الجنوة لبونيفاسيو ، في العقد الأخير من القرن الثاني عشر ، حصريًا "مبادرة ، بدعم أو أقل من الدولة ، من قبل القراصنة العظام هذه الاضطرابات، التي يمكن أن تعرقل التجارة، دعت إلى التشكيك في الأسس الموضوعة لتنمية التجارة .
عززت البندقية و جنوة علاقاتها التجارية مع الموحدين في فأصبحت التجارة مزدهرة خاصة خلال الربع الأول من القرن الثالث عشر. هكذا أصبحت الامارات الإيطالية تسيطر على التجارة في القرن الرابع عشر .

-1-Cité par Pinuccia Franca Simbula R. S. Lopez, *Benedetto Zaccaria, ammiraglio e mercante nella Genova del Duecento*, Florence, 1996 ; E. Basso, « Pirati e pirateria a Genova nel Quattrocento », dans *La Storia dei Genovesi*, Gênes, 1991, p. 327-351.

المراجع و المصادر :

Georges Marçais , Honein, recherche d’archiologie musulmane , Revue africaine, 1928 -

-Pinuccia Franca Simbula , *Islands, Privateers and Pirates in the Medieval Mediterranean* Îles, corsaires et pirates dans la Méditerranée médiévale, Traduction Didier Boisseuil, Médiévales ottomne 2004

-Dominique Valérian, **Le pouvoir et les espaces portuaires dans le Maghreb médiéval, Presse Universitaire Rennes.**

-Dominique Valérian , Ports et réseaux déchanges dans le Maghreb médiéval, Casa de Velàquez, Madrid 2019

-Isabelle Bernier, **L'essor du commerce au Moyen Âge, https://www.futura-sciences.com/sciences/questions-reponses/histoire-essor-commerce-moyen-age-13288/**

Piemonthèse Angélo-Michel, Les relations diplomatiques entre le monde musulman et l’Occident laton (XIIe- XVI siècles). Vol 88/2 2008 -

P. Boissenade, les relation commerciales de la France méridionale avec l’Afrique du Nord Bulletin de la Société de Géographie, 1929 -

Daoudi Belkacem , Les relations commerciales entre le Royaume Abdelwadide et les villes du sud de l’Europe, XIIIe/ Xve BIBLID, 16, 2009 -